إعلام

ينقل نص أدبى قديم صورة لإحدى مراحل عصور الانحطاط عندما كان السيد يقول لأحد مواليه أو خدمه:

- وافقنى أيها العبد وافق!

فيرد المولى قائلاً:

- نعم يا سيدى نعم!

- أريد أن أزور المقابر!

- نعم يا سيدى نعم، فما زيارة المقابر إلا عظة وعبرة ومنفعة لا يقوم بها إلا صاحب عقل كبير وأخلاق رفيعة ومكانة عظيمة.. و..

- ولكننى عدلت عن زيارة المقابر!

- نعم يا سيدى نعم، فلن تلقى هناك إلا العظام البالية التى تجلب لك الهم والغم فما أعظم عقلك الذى أشار عليك بالعدول عن هذه الزيارة و..

- وافقنى أيها العبد وافق!

- نعم يا سيدى نعم!

- سأقيم عرساً وأتزوج امرأة أخرى!

- هنيئاً لك يا سيدى بهذه الفكرة العظيمة التى تجدد بها شبابك وتزين بها بيتك بعد أن تقدّم العمر بزوجتك الأولى التى ذبل جمالها وضعفت صحتها وما عادت تصلح لرجل مثلك!

- ولكننى عدلت عن إقامة العرس!

- نعم ياسيدى نعم، فما الزواج الثانى إلا دليل عقوق ونكران لزوجتك ذات الحسن والجمال التى تحفظ لك الود وتملأ عليك البيت هناء وسعادة وأولادا!

ولعل سيد عصرنا الحديث قد صار الآن رئيسًا لدائرة من الدوائر أو

زعيمًا لحزب من الأحزاب أو مسئولاً سياسيًا لتنظيم يحكم البلاد، وسوف يلتفت السيد الجديد ليجد عبده الآن يحمل ناقل الصوت أو آلة التصوير أو جهاز الإبراق الصحفي، فقد تفنن أسياد عالمنا الثالث فى جعل الإعلام الذى يتبع الدولة وسيلة تطبيل وتزمير بدل أن يكون وسيلة نقد وتوجيه وتثقيف. وما أن يقول السيد الجديد:

ـ وافقنى أيها العبد وافق!

حتى يتقدم الإعلام الحكومى قائلاً:

ـ نعم يا سيدى نعم!

فيشير السيد الجديد إلى مواقع القوى العظمى على الخريطة ويقول بلغة عربية فصيحة:

ـ لقد قررت أن أعقد حلفاً مع أيسلندا!!

فيجيب مكبر الصوت قائلاً:

ـ نعم يا سيدى نعم، لقد عرفت كيف تختار حليفاً قويًا منيعاً قادراً على ردع الأعداء، تربطك به الأواصر التاريخية والروابط الثقافية وتجمع بينك وبينه العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية فهنيئاً لك بهذا العقل الكبير.

ـ ولكننى أرى أن أعقد الحلف مع «جانبولاد».

ـ نعم ياسيدى نعم، فماذا كنا سنستفيد من جزيرة بأقصى الشمال لاتملك من مقومات الحياة إلا جرافات الثلوج وقوارب الصيد، أما جانبولاد فما أكثر الروابط التى تربطنا بها وعلاقات النسب والمصاهرة بيننا وبين أهلها وفوق هذا وذاك فهى تقع على مدار الجدى وهذا طالع سعد وهناء ودليل خير وبركة فالحمد الله الذى هداك لهذا الرأى العظيم.

ـ لقد تذكرت الآن أن جانبولاد مجرد اسم وهمى لبلاد خيالية

قرأت عنها فى إحدى الروايات!

ـ نعم ياسيدى نعم، ومع ذلك فسنعقد معها أعظم الأحلاف ونبرم معها اتفاقيات التبادل التجارى والثقافى والدفاع المشترك ونُحيل الخيال حقيقة والوهم واقعاً بفضل ما لديكم من حكمة وعبقرية.

***

تتغذى نشرات الأخبار فى إذاعات العالم المسموعة والمرئية على ما يحدث فى الدنيا من حروب وفواجع وكوارث. إن هذه الحوادث المفجعة تشكل المادة الرئيسية لأى نشرة أخبار. ولذلك فإنه لم يعد ممتعاً أو مسلياً أو جالباً للفخر أن يسمع الإنسان اسم بلاده يتكرر كثيراً فى هذه النشرات. إن الذين تغربوا عن أوطانهم من أبناء البلاد العربية غالباً ما يتشوقون لسماع أخبار ما يحدث فى بلادهم منقولاً عبر إذاعات وتليفزيونات البلاد التى يعيشون فيها. وهم عادة يبدأون أكثر لهفة وحماساً لسماع هذه الأخبار فى المراحل الأولى لإقامتهم فى بلاد الغربة، ثم يكتشفون شيئاً فشيئاً حقيقة المثل الأجنبى الذى يقول:

«الأخبار الطيبة هى ألا تكون هناك أخبار» ومعنى ذلك أن أى أخبار تسمعها عن طريق هذه الأجهزة الإعلامية التى تخصص حصة صغيرة لنشرات الأنباء لن تكون على الأغلب أخباراً طيبة، إذ إن تليفزيون البى بى سى أو الآى بى سى، لن يهتم كثيراً إذا ما كان موسم الأمطار فى القرية التى جئت منها خصيباً هذا العام أو أن الغلال أكثر وفرة من العام الماضى أو أن مشروعاً إسكانيّا قد تم تنفيذه أو مدرسة تم افتتاحها أو أن نسبة النجاح فى الثانوية العامة قد سجلت ارتفاعاً قياسيّا هذا العام. لن يأتيك بالنتائج التى حققها الإحصاء العام لعدد السكان وإنما يأتيك بإحصاء عدد القتلى والجرحى فى حادث اعتداء على الحدود أو نتيجة سيارة مفخخة أو كارثة

من كوارث السير التى تحدث فى الأرض والسماء، لن يأتيك إلا بأخبار مضاعفات النزاع الذى ينشب بين بلادك وبلاد أخرى وما فعلته الأطراف الدولية لفض هذا النزاع.

وإذا لم تكن بلادك قوة عظمى مثل روسيا أو أمريكا أو على الأقل إحدى بلاد العضوية الدائمة فى مجلس الامن ممن تهتم الإذاعات بتحركات قادتها واجتماعاتهم لما له من تأثير فى السياسة الدولية فإنك لن تحلم بخبر يأتى من بلادك إلا إذا اكتسى طابعاً تراجيديّا، إذ ما أهمية أن يهتم العالم بقطر صغير إذا لم يكن لشىء مثير أو مريع.

إننا لانسمع كثيراً فى نشرات الأنباء أخبار النرويج أو الدنمارك أو هولندا أو السويد أو سويسرا وهى أكثر بلاد العالم تقدماً وحضارة. بل إن أغلبنا لايعرف أسماء قادتها وحكامها بينما تجعله الأحداث الفاجعة يسمع كل يوم أخبار أوغندا أو نيكارجوا أو فولتا العليا ويحفظ أسماء قادتها مع أنها بلدان بائسة فقيرة متخلفة، قليلة العدد وضئيلة الشأن فى الحسابات الدولية.

لقد صار الوطن العربى مصدراً أساسيّا ومورداً مهمّا من الموارد التى تعيش إذاعات العالم على مخزونها الكارثى. إن الاستثناء الوحيد الذى حدث فى السنوات الأخيرة جاء بفضل الانتفاضة التى شهدتها الأرض المحتلة، فبرغم أن نشرات الأخبار كانت تنقل أحداثاً مؤسفة عن الضحايا الذين يسقطون من أهلنا وأبنائنا فإن الجانب الإيجابى فيها أنها كشفت عن الوجه الحقيقى لدولة الكيان الصهيونى. هذا الوجه الذى ظلت إسرائيل تخفيه عن الرأى العام تحت أكداس من الأصباغ وفنون الدجل والتمويه والتنكر فجاءت الانتفاضة ترفع القناع وتزيل الأصباغ و تكشف للعالم حقيقة هذا الوجه البشع الكريه.

***

يمكن القـول إن كل محطات التليـفزيون فى أقطار العـالم العربى تـتبع الحكومات (وأقـول «يمكن» لأن ما يسمى حكومة فى لبنان لم يعـد لها من النفوذ مـا يجعلها قادرة على إدارة هذه المحطات فـسقط كل شىء فى أيدى زعماء الطوائف ولوردات الحرب الأهلية).

والعالم العربى ليس ظاهرة فـريدة فى هذا المجال، لأن هذا هو الحال مع المحطات التليفزيونية فى تسعة أعشار بلاد العالم.

وأن تتـولى الحكومة احـتكار الإرسال المرئى ليس مـعناه أن الأمـر صار مثيراً للريبة والشبـهات، إذ ليس بالضرورة أن يكون التلفـاز الحكومى شراً كله. وبما أن الحكومات تتـفاوت فى درجات السوء والصـلاح فإن محطات التليـفزيـون لن تكون إلا تعبيـراً عنهـا وانعكاساً لهـا ومـهمـا تبـاينت هذه الحكومات فإن أحـداً لايقول إن الشركات الخـاصة مثلاً أفضل مـنها أو إنها أكثر فائدة ونفعاً وأعظم حرصاً على مصالح المشاهدين.

ولعل أفضل صـيغة لإدارة هذا الجـهاز البالغ الفعـالية هى الصيـغة التى وصل إليها أهل الجـزيرة البريطانية عندما جـعلوا من هيئة إذاعتهم مـؤسسة مستقلة، تحررت من سيطرة المعلنين والشركـات الخاصة وأموال المستثمرين، فهى مؤسسة يتولى المواطن تمويلها عن طريق الـرسوم الخاصة بحيازة أجهزة الاستـقبال، وتديرها هيـئة من الأمناء ولايحكمهـا إلا ميثـاق الشرف الذى اتفق عليـه العاملون بهـا وهى صـيغـة تحتـاج إلى بيئـة وصلت فى تدرجهـا الحضارى واستقرارها السياسى وازدهارها الاقتصادى شأواً عالياً.

لقد أصـبح التلفاز أخطر مـؤسسة لتـوجيه الرأى العـام، ومعنى ذلك أن الحكومـة عندما تتـولى أمـره فإنهـا ينبغى أن تديره بمـثل ما تدير سـياسـتهـا التعـليميـة، وهذا للأسف الشديد لايحـدث فى معظم تـليفزيونات الـعالم العربى. إن الاهتـمام فى هذه الأجـهزة إنما يوجه عـادة إلى نشرات الأخـبار

والبرامج السياسية، بينما تترك بقية المواد والبرامج لصغار الكتبة والموظفين يتولون بذوقهم اختيارها وتقديمها للجمهور، ومعنى ذلك أنها تترك لهم مهمة تكوين أذواق المشاهدين وصياغة الوجدان الجماعى لأبناء المجتمع.

إن واجب الحكومة وهى تتولى أمانة هذا المرفق التثقيفى و التعليمى الخطير أن تستعين بمجلس من المفكرين والعلماء والمبدعين والمربين يتولون معها مسئولية إدارته ورسم سياسته لكى لايتحول من جهاز تثقيف وتنوير وترفيه إلى جهاز تجهيل وتعتيم.

***

استاءت إحدى الحكومات من نتائج الموسم الزراعى فى محافظة من محافظاتها وعرفت أن السبب يكمن فى ما حدث للتربة من تلف نتيجة الاستهلاك ونتيجة عدم استخدام الأسمدة التى لايعرفها فلاح هذه المنطقة، فسارعت مشكورة إلى جمع مزيد من الأزبال والنفايات والفضلات لاستخدامها فى إنتاج كميات إضافية من السماد تغطى حاجة هذه المنطقة، وقررت توزيعها مجاناً على فلاحيها حتى يمكنهم التعرف على فوائد هذا السماد ليتولوا بعد ذلك شراءه بأنفسهم. إلى هنا والأمر طبيعى يحدث مثله فى أى مكان من الدنيا وتقوم به أحياناً الشركات التجارية التى تسعى لترويج إنتاجها الجديد لتوزيع كميات منه مجاناً لتعريف الناس بهذا الإنتاج وإغرائهم باستهلاكه. ولكن ما لايمكن أن يحدث مثله فى أى مكان آخر من الدنيا غير عالمنا العربى، هو ما يعقب هذا الإجراء من تعبئة إعلامية لإظهار منجزات الحكومة وخدماتها الجليلة للفلاحين، وسرعان ما تأتى البعثات الإعلامية من مصورين ومذيعين لنقل آثار هذه المكرمة الجديدة من مكارم الحكومة، وإذا بقرى تلك المحافظة التى ظلت بعيدة عن اهتمام الإعلام ترى صور مواطنيها فى التليفزيون وهم يشكرون ويهتفون، ويدخل

الإعلاميون إحدى هذه القرى لأول مرة، ولأن لهذه القرية مشاكلها مع الماء والكهرباء ولأهلها هموماً تتعلق بالعلاج والتعليم والسكن وغلاء الأسعار فهم يهرعون لإبلاغ مطالبهم لهؤلاء الزوار الكبار، ولكن البعثة التليفزيونية لاتريد أن تستمع إلى المشاكل والهموم، إنها ساعة للفرح وليست ساعة للأنين والتشكى، لقد وصل السماد إلى القرية ووجب أن تدق الطبول وتحرق الأبخرة تمجيداً للحكومة العظيمة، ويدور مشهد من أكثر المشاهد طرافة ومأساوية فى ذات الوقت فها هو فلاح يغطى وجهه البؤس، مصاب بأمراض الأنيميا والتراخوما والشيخوخة المبكرة، يظهر بملابسه الرثة المتسخة وقد وضعوا أمامه كومة من السماد ليرد على أسئلة المذيع، عن تعلق المواطنين بحكومتهم التى أهدتهم السماد مجاناً فيستخدم مهارته الإذاعية من أجل وضع الكلمات فى فم الفلاح المسكين لنعرف منه أنه لولا هذا السماد لصار الآن أعمى أو كسيحاً أو أبكم. فقد حماه سماد الحكومة من العاهات وحمى أولاده من الجنون وحمى قريته من الزلازل التى كانت ستداهمها لولا هذا السماد العجيب الغريب، ويمضى المذيع فى إذلال هذا الفلاح وكأن هذا السماد الذى أرسلته الحكومة إكسير الحياة وليس مجرد نفايات وفضلات وأزبال.

***

تذكرت وأنا أقرأ فى الصحف أخبار الدول الاشتراكية التى تستعد لفتح إذاعاتها المرئية والمسموعة للإعلان التجارى، حفل تعارف على ظهر باخرة سياحية، عندما جاءت موظفة الاستقبال تسألنى عن هوايتى لتسهيل مهمة التعارف والتقديم، ومتأثراً بجو الإجازة والسياحة، وابتعاداً عن التورط فى الحديث عن هواية تثير الجدل والنقاش وتجلب الخصومة والخلاف، قلت للموظفة بأسلوب ساخر إن هوايتى هى مشاهدة الإعلانات التليفزيونية.

واندهشت عندما وجدت أن موظفة الاستقبال أخذت الأمر مأخذاً جاداً وصارت تبحث لى عن شركاء فى هذه الهواية، أتعرف إليهم وأتبادل معهم الحديث عن خبرتنا المشتركة فى هذا المجال . واكتشفت عندئذ أن ما ظننته حديثًا عابثاً حول الإعلانات، يتحول إلى قضية ساخنة، وأن هذه الهواية، التى لم أكن أظن أن أحداً سيهتم بها بجوار الذين يحبون الأدب والموسيقى والسينما والسياحة والزهور، تحظى بشعبية كبيرة بين راكبى السفينة. لقد صارت الإعلانات المرئية جزءاً من حياتهم وتعاملهم اليومى مع الدنيا، فكان لابد أن يصير لها معجبون يتحمسون لها ويدركون أهميتها ويفاضلون بين الإعلان الجيد والإعلان الردىء ووجدت نفسى أدخل فى حديث عن الاحتكارات الدولية والشركات المتعددة الجنسية التى تسخر أعظم المهارات والكفاءات لتقديم الإعلان. ولأن الإعلان لابد أن يكون قصة قصيرة تصور فى جزء من الدقيقة موضوعاً ، وتقدم وجهة نظر ، وتسعى إلى نيل رضا المشاهد وإعجابه، فلا بد أن مجموعة من المعارف والخبرات والفنون تشترك فى تقديم هذه اللحظة التى تحتاج إلى قوة الأداء والتنفيذ. ومهما كانت البضاعة سيئة السمعة مثل السجائر فلابد أن تقدم إلى المشاهد باعتبارها شيئاً مبهجاً وجميلاً ومفيداً ولابد أن تخترق كل قناعاته وأفكاره لتكسبه إلى صفها. ورأيتهم يضربون أمثلة بإعلانات صارت لها الآن قيمة فنية وجمالية وتاريخية تتجاوز قيمتها الإعلانية. ولأننى كنت جاهلاً بهذا العالم وأسراره فقد عدت من تلك الرحلة أكثر انتباهاً إلى أهمية الإعلان فى حياتنا، وأكثر قدرة على الاستمتاع بالجوانب الفنية لهذه الإعلانات مهما كانت تتناقض مع قناعاتى وأفكارى عن البضاعة التى تعرضها. إن هناك جانباً جماليًا لاعلاقة له بالقيم والمفاهيم والقناعات. وسمعت رأياً أعجبنى للكاتب غورفيدال، يعزو فيه شعبية

الرئيس السابق للولايات المتحدة الامريكية ، رونالد ريجان ، لإعلانات التليفزيون، فكل شيء فيه يذكر المواطن الأمريكى بهذه الإعلانات ابتداء من صوته وطريقته فى الحديث. وهو مثل الإعلان التليفزيونى يغطى خواءه وسطحيته بالأسلوب والأداء والتلوين العاطفى فى نبرات الصوت. ولأن الأمريكيين يحبون الإعلانات المرئية ويعيشون معها ليلاً ونهاراً فقد انتخبوا ريجان وأحبوه لهذا السبب.

إن عالم الإعلان التليفزيونى (ولنترك جانباً الصحافة والاذاعة) صار ظاهرة تدل على العصر وترمز إليه أكثر من أى ظاهرة أخرى. والنظر إليه باعتباره رمزاً لعيوب المجتمع الاستهلاكى وأداة من أدوات التضليل وتغييب إرادة المتفرج، ليس تحليلاً كافياً أو منصفاً لهذا الإعلان، إنه أيضاً إعلام وإخبار. وهو أيضاً فن وتقنية ومهارة وخبرة، وهو يأتى ليؤدى وظيفة يبدو أنها صارت ضرورية فى مجتمعات العلم والصناعة والاستهلاك. إنه يقدم للمشاهد إحساساً بالأمان فى عالم مملوء بأخبار الكوارث والمآسى والصراعات، إحساساً بأن كل شيء متوفر وموجود وفى متناول اليد، حتى لو كان وهماً فإن المشاهد يحتاج إلى هذه الجرعة من الطمأنينة والأمان.

ولأن كل شيء فى الإعلان المرئى جميل وبهيج ورائع إلى حد الكمال؛ فإن المشاهد عندما يرى حصة إعلانية بين فقرات الكوارث التى تقدمها نشرات الأخبار يشعر بشيء من الارتياح والامتنان لأن العالم ليس سيئاً وقبيحاً إلى الحد الذى توحى به الأخبار.

إن لهذه الإعلانات مفعول المهدئات التى نعالج بها الهزات النفسية والعصبية التى تصيبنا بها وتيرة الحياة فى هذا العصر. وإذا كان لهذه المهدئات بعض الأضرار الجانبية فمتى رأينا علاجاً يخلو من هذه الأضرار؟

***

هناك إنجاز عربى عجيب يتصل بتأثير الإرسال التليفزيونى وفعاليته لاأعتقد أن الدارسين لوسائل الاتصال بالجماهير قد انتبهوا إليه لأنهم لو فعلوا ذلك، لعرف العالم أن انقلاباً فى فهم هذه الوسيلة وإدراكها تحقق على أيدينا. لقد استخدمنا هذا الجهاز استخداماً يعطل فاعليته تمام التعطيل، بل إننا وصلنا إلى نتيجة مذهلة لا أعتقد أن أحداً قد سبقنا إليها وهى الحصول على تأثير عكسى لكل ما ننوى تحقيقه من هذا الجهاز.

فنحن جميعاً نعرف أن أصحاب الشركات المنتجة والمصنعة لمختلف السلع والبضائع والمواد الاستهلاكية، يدفعون كل عام ما قيمته بلايين الدولارات مقابل نشر إعلانات تحبب المشاهدين فى بضائعهم وتدفعهم لشرائها، وكلما تكرر الإعلان عنها ازداد إقبال الناس عليها، ويصرف المرشحون للمناصب الرئيسية فى الغرب الأموال الطائلة من أجل شراء حصص فى برامج التلفاز يظهرون فيها على الناس لتزيد من شعبيتهم وتتولى تشجيع الناس على انتخابهم، وكلما استطاع مرشح من المرشحين الفوز بحصص أكثر كانت حظوظه فى النجاح أكثر من منافسيه، ولهذا فإنه لأول مرة فى تاريخ تعامل الناس مع هذا الجهاز الخطير يتحقق العكس، أى أن المشاهدين يزدادون نفوراً وكراهية مما تعرضه عليهم الشاشات الصغيرة فى عالمنا العربى، وإذا كانت الوجوه التى يتكرر ظهورها فى هذا الجهاز هى الأكثر شعبية فى العالم فإن الوجوه التى يتكرر ظهورها لدينا غالباً ما تصبح موضع سخط المشاهدين ونقمتهم.

وسأضرب أمثلة من هذا التاريخ الذى بين أيدينا. لقد اشتهر الرؤساء السابقون الثلاثة أنور السادات، والحبيب بورقيبه، وجعفر النميرى، بأنهم من أكثر رؤساء الدول ظهوراً على شاشة التلفاز، وفى حين كان النميرى يتولى بنفسه تقديم البرامج التليفزيونية التى يرد فيها على رسائل المشاهدين

فإن السادات اقترن اسمه وعهده وسمعته الدولية بهذا الجهاز الذى كان يتبعه ويقتفى أثره أينما ذهب إلى أن لقى نهايته المأساوية أمام كاميراته، وأما بورقيبه فقد جعل التلفاز التونسى أشبه بمحطة خاصة تنقل أخباره وأقواله وحصص المدائح والأغانى التى تقال تمجيداً لشخصه، ومع ذلك فإن هؤلاء الرؤساء الثلاثة، وبغض النظر عما حدث ضدهم من انتفاضات، يتشاركون فى أن شعبيتهم قد وصلت مع نهاية عهودهم إلى أدنى مستوياتها، وبدا واضحاً أنه كلما ازداد ظهورهم فوق شاشة التلفاز ازداد نفور الشعب منهم وسخطه عليهم. وعندما انتهوا انتهت معهم ملايين الكيلو مترات من الأشرطة المرئية التى أخذت لهم والتى ظنوا أنها سوف تضمن لهم البقاء فى الحكم بمثل ما تضمن لأعمالهم الخلود. لقد ذهبوا ضحية إيمانهم بفعالية هذا الجهاز وتصديقهم للآراء التى تقول إنه أفضل وسيلة لإرغام الناس على حبهم، وفى حين أرادوا تعزيز مكانتهم وزيادة شعبيتهم وتأكيد حضورهم فى أذهان المشاهدين عن طريق الإسراف فى الوقوف أمام كاميرات التليفزيون، إذا بهذه الكاميرات ذاتها هى التى تعمل على تنفير الناس منهم وتسهم فى التعجيل بانتهاء عهودهم.

إنها إحدى المفارقات العجيبة التى وجب الوقوف عندها والبحث عن دلالتها ومغزاها لأنها أبطلت كل تلك المفاهيم والأفكار التى يتداولها الناس على مدى سطوة هذا الجهاز وجبروته، القادر على أن يجعلك تحب ما لاتريد حبه وتشترى ما لاتريد شراءه.

لقد أثبت المواطن العربى أنه أكثر سطوة وجبروتاً.

***

عاد المذياع ليحتل فى حياتنا دوراً مركزيّا مع توتر الأحداث وتصاعد الأزمة التى يشهدها الوطن العربى. المذياع الذى أهملناه واستبدلناه

بالتحديق فى شاشات التلفاز، ومصاحبة الأشرطة المسجلة المرئية بما تقدم لنا من تسلية وترفيه. عاد الآن ليكون مرشدنا ودليلنا وسط هذا الجو اللافح، العامر بالعواصف والأعاصير وقعقعة السلاح، ننتقل به من مكان إلى آخر، ونتحلق حوله فى المكاتب وعلى الشواطئ وأمام الدكاكين ونضعه بجوار رؤوسنا عندما ننام، وأحياناً نستعين بأكثر من مذياع ينقل لنا أصوات المذيعين من شمال الأرض وجنوبها، وشرقها وغربها حيث تختلط الأصوات كما تختلط المشاعر والعواطف والانفعالات، تهتز نفوسنا تفاؤلاً مع خبر يأتى كأنه حبل النجاة، ينتشلنا من قاع الجب، ثم يأتى خبر آخر يعيدنا إلى بئر اليأس والتشاؤم. قد نقرأ الصحيفة أول الصباح، وقد نشاهد التلفاز آخر الليل، ولكن المذياع يبقى الرفيق الملاصق لنا فى أوقات الشدة، ليلاً أو نهاراً، منه نستمد معلوماتنا ونستعير من ألوانه ألوان مشاعرنا وانفعالاتنا، ونستنجد به فى كل لحظة أن يقول خبراً يفرحنا، وننتقل من محطة إلى أخرى بحثاً عن هذا الخبر المفرح الذى لا يأتى. تتشنج أصابعنا ونحن ندير الأزرار، وتتهدج أصواتنا ونحن نشتم المذيع الذى يقول شيئاً يصدم مشاعرنا ولكن المذيع لايهتم بسخطنا أو تشنجنا، إنه يقول ما يقوله حتى لو تحول إلى كوابيس تسيطر على نومنا ويقظتنا، ونحن مع ذلك لانستطيع أن نفك ارتباطنا بهذا المذياع أو نرميه جانباً عقاباً له. نلصق آذاننا به، نتسقط الأخبار ونسمع كلام المحللين وتصريحات أهل السياسة، وننتقى بعض الأقوال التى نعيدها فى المجالس ونتحمس لها أثناء النقاش، ونواصل دورتنا مع دورة الليل والنهار، مذيعون يقولون نفس الكلام عبر جميع المحطات، يعيدون قراءة نفس الأخبار، ساعة وراء الأخرى، ونحن نلهث وراء هؤلاء المذيعين دون كلل أو ملل.

ولا أدرى إذا كانت علاقتنا بالمذياع كمواطنين عرب، تختلف عن علاقة

الآخرين به أثناء الأزمات، فنحن ما أن تلوح أمامنا بوادر الأزمة حتى نذهب إلى المذياع طلباً للمعلومات. ولعل ذلك يرجع إلى أن ثقافتنا التى تمتد جذورها فى أرض المجتمع البدوى، الرعوى، ثقافة شفهية، سماعية تعتمد على الرواية ونقل الأخبار شفاهة، أكثر مما تعتمد على التوثيق والكتابة، ولذلك صار للمذياع كل هذه الحظوة فى حياتنا.

وإذا كان المواطن العربى معنيّا قبل الآخرين بما يحدث فوق أرضه، ويحمله همّا يوميّا يطغى على همومه الأخرى، فإن حجم الاهتمام الذى تمنحه الدوائر السياسية فى العالم لهذه الأحداث يجعل منها حوادث تهم كل إنسان يعيش فوق الأرض.

إن ما نراه من قلق يعم الكرة الأرضية بأجمعها يؤكد لنا حقيقة كبرى من حقائق السياسة المعاصرة، وهى مدى أهمية وخطورة هذه الرقعة من الأرض المسماه بالوطن العربى.

إن قيمة وحيوية هذه الأرض التى ننتمى إليها، وإدراك العالم اليوم بأنها مركز العصب ومصدر القوة وسر هذا الكوكب، يجعلنا مطالبين بأن نعيد حساباتنا وننتبه إلى مدى قوتنا وندخل معارك الصراع والتحدى بإرادة موحدة قادرة على فرض وجودها فى عالم لايعترف إلا بالقوة القائمة على الحق والشرعية.

***

الكلمة المسموعة التى تذاع عبر الأثير، و الكلمة المقروءة التى تنشر فى صحيفة أو كتاب، ملمحان من ملامح عصر جديد بدأ باختراع المطبعة وواصل التطور عبر هذه التقنيات الحديثة التى تستخدم الأقمار الصناعية هو عصر وسائل الاتصال الجماهيرى.

والكاتب فى هذا العصر أسعد حظّا من أسلافه القدامى الذين كانوا

يلقون أشعارهم وأطروحاتهم الفلسفية وحكاياتهم المروية فى الأسواق، أو يتعاملون ـ فيما بعد ـ مع دكاكين الوراقين، فهو الآن يستطيع أن يرى كلمته تصل إلى عيون وآذان الملايين من الناس عبر هاتين الوسيلتين.

ورغم أننى أنتمى إلى الكلمة المكتوبة التى تطبع فى كتاب أو صحيفة، إلا أننى صاحب تجربة صغيرة فى التعامل مع الإذاعتين المسموعة والمرئية، وقد بدأ ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً عندما كنت أكتب برنامجاً للإذاعة المسموعة كان يذاع صباح كل يوم باسم «مجرد رأى»، وكان مثيراً وجميلاً أن أرى ردود الفعل التى تصل من جمهور جديد لايقرأ الصحيفة أو الكتاب هو جمهور الكلمة المسموعة، وأتعرف على هذه الإمكانيات الهائلة التى تحملها وسائل الاتصال الحديثة التى تخاطب جمهوراً واسعاً وعريضاً وأبعد مدى من أن تصل إليه الوسائل المطبوعة. ولقد كان هذا الإغراء الذى تحمله الوسائل الحديثة كافياً لأن يجعل كتاباً كثيرين يهجرون مواقعهم القديمة فى عالم الصحيفة والكتاب وينتقلون للعمل بالإذاعتين المرئية والمسموعة. ويسعون إلى تطوير أدواتهم وإمكانياتهم بما يناسب التعامل مع هذه الوسائل السمعية والبصرية. إنه خيار صعب يواجه أى كاتب فى هذا العصر الذى يطالب بالتخصص وامتلاك المعرفة بالتقنيات التى تحتاجها كل واسطةمن هذه الوسائط التى تخاطب الناس.

وصعوبة الاختيار، تأتى من أن لهاتين الوسيلتين ـ أى الكلمة المسموعة والمكتوبة ـ إيجابيات وسلبيات .

فجهاز الإذاعة، مرئيًا أو مسموعاً ـ برغم اتساع الدائرة التى يتعامل معها من مستمعين ومشاهدين ـ فإن ما يقوله يتناثر عبر موجات الضوء والهواء، ويذوب لحظة إذاعته فى هذا الفضاء الذى يغلف الكون. بينما تحتفظ الكلمة المطبوعة برغم الدائرة الصغيرة لقرائها، بقدرتها على البقاء لتكون

فى متناول القارئ أحقاباً بعد زمن كتابتها.

ولعل الصيغة السعيدة الوحيدة هى تلك التى اهتدى إليها بعض الكتاب والمبدعين المتعاملين مع الكلمة المطبوعة، عندما وجدوا من الكتاب الإذاعيين من اعتنى بتطويع إنتاجهم ليناسب وسائل البث المرئى والمسموع، فنقلوا ما كتبوه من أشعار وقصص وذكريات ومذكرات وتراجم إلى مادة إعلامية سمعية وبصرية يكون مردودها متعة وفائدة لأوسع قاعدة من المستمعين والمشاهدين والقراء. ويتحقق ذلك اللقاء المخصب الجميل بين الكلمة المكتوبة والكلمة المسموعة.

***

تتسع يوماً وراء الآخر المسافة التى تمنحها الصحف لمشاركات القراء. وبقدر ما تزداد هذه المشاركات عمقاً وجدية بقدر ما يزداد حجم المسئولية الملقاة على الصحيفة، فهى لابد أن تسعى للارتفاع بمستوى أدائها وخدماتها وأسلوب تناولها للأحداث ومعالجتها للقضايا لأنها تدرك أن وراءها قارئاً حازماً يتابع ويحاسب ويتدخل لإبداء الرأى والملاحظة وليس مجرد قارئ يتلقى ما يقدم له دون اعتناء أو رأى أو نقاش. لقد أصبح القارئ شريكاً فى العملية الإنتاجية لوسيلة الإعلام ومن هنا وجب عليه هو الآخر أن يرتفع إلى مستوى هذه المشاركة وما تترتب عليها من مسؤوليات. إن انقلاباً خطيراً يحدث الآن على مستوى الصحافة العربية، تقنية وطباعة وتوزيعاً، فلأول مرة منذ اختراع الصحافة يتحقق ذلك الإنجاز الذى يجعل القارئ العربى فى مشارق الأرض ومغاربها داخل الوطن العربى وخارجه يقرأ الصحيفة ذاتها وفى اليوم نفسه الذى صدرت فيه. لقد كان هذا يحدث وبشكل ضيق على مستوى الكتب والمطبوعات الدورية، أما أن يحدث ذلك بالنسبة لصحيفة يومية تتعامل مع الأحداث الساخنة والوقائع الجديدة وعلى هذا المستوى من

الاتساع وبهذا القدر من الانتشار والديمومة والاستمرار فهذا ما لم يتحقق إلا منذ فترة وجيزة مضت، أى مع استخدام الأقمار الصناعية فى نقل الصحف العربية وطباعتها مما يجعلنا نشهد إنجازاً علميّا وصحفيّا قادراً على أن يحدث أعظم التحولات فى أساليب التعامل مع الرأى العام العربى، إن ظهور منابر صحيفة قومية تتجاوز الطرح القطرى والإقليمى وتتجه إلى القارئ العربى أينما كان، سيكون فرصة عظيمة لخلق رأى موحد حول الكثير من القضايا التى تهم المواطن العربى، إذ مهما كانت القضايا ذات طابع عاجل وملح فإن بإمكان صحافة يومية توفرت لها إمكانات التوزيع والوصول إلى القارئ على امتداد الوطن العربى بعد لحظات قصيرة من صدورها، بإمكان صحافة من هذا النوع أن تعمل على استنفار الرأى العام العربى وتعبئته وتحريكه من أجل الوصول إلى مواقف حاسمة ومحددة حول تلك القضايا.

ومن هنا تأتى مهمة القارئ فى هذه المرحلة الصحفية الجديدة، إنها مرحلة أكثر خطورة وجدية من أى مرحلة مرت بها الصحافة العربية فى تاريخها الذى يمتد لأكثر من مائة وخمسين عاماً، وهى تريد قارئاً يتكافأ مع هذه الخطورة والجدية، إننا بمثل ما نطالب الصحيفة بأن تتجاوز الطرح القطرى والتناول الإقليمى للمشاكل والقضايا وتبتعد عن وجهة النظر الأحادية أو المحكومة بمنظور محلى، فإننا نطالب القارئ أيضاً بأن يرتفع إلى مستوى التحديات التى تفرضها هذه المرحلة، نريده أن يكون شريكاً فى المسيرة الجديدة يرى ويراقب ويحاسب ويعاتب، يكشف أى انحراف عن الاتجاه الصحيح، ويقدم دعمه وتأييده لما يراه صادقاً وأميناً، نريده أن يكون صمام أمان، وعامل إثراء وإغناء لصحافته العربية، يدفع بها دائماً نحو المزيد من الإبداع والتجديد والابتكار.

***

يحتمى قارئ التعليق الإذاعى بالهواء. فهو يأتى راكباً موجات الأثير، لانرى له وجهاً ولانمسك عليه دليلاً ولانستطيع أن نصل إليه بردودنا أو تعليقاتنا أو احتجاجاتنا. لو كان حاضراً بيننا لقذفنا برأينا فى وجهه، ولطالته صيحات الاحتجاج والاعتراض على كلامه، وقد يصل الغيظ ببعضنا إلى رميه بالبيض أو الطماطم أو الكراسى، ولكنه احتمى ببعده عنا وجلس يطلق كلماته التى تسافر آلاف الأميال لتصل إلى آذاننا. كلمات تأتى من الهواء وتذوب فى الهواء، لأنه لايقول كلاماً مكتوباً يراجعه الناس فيما بعد ويأخذونه بالحجة والبرهان على ماقاله، ولذلك فهو يقول ما يقوله دون أن يجد من يعارضه أو يناقشه، نستمع إليه صابرين. نرمى بشتيمة لاتصل إليه، ونقفل المذياع أو نبقيه مفتوحاً فقد وصل بكلامه إلينا، وأورثنا قلقاً أو ضيقاً، دون أن نستطيع عمل شىء حياله، اشتغل بقلب الحقائق، وتزييف التاريخ وابتاع واشترى فى قضايانا ومصائرنا وسخر من فهمنا وعقولنا، دون أن يلقى تبكيتاً أو تأنيباً، أو يخشى محاسبة أو مراجعة، فهو لايكتب كتاباً أو يحرر صحيفة نستطيع أن نعود إليها متى شئنا ونرفعها كدليل ضده عندما يأتى وقت الحساب والعقاب. ولذلك فقد فرض الحديث عبر الهواء أسلوباً جديداً فى الخطاب لم يكن موجوداً قبل ظهور هذه الاختراعات الحديثة، وأنشأ مدرسة جديدة، هى مدرسة الأشباح التى تنهال عليك بكلام كالحجارة، أو تنهمر عليك باللكمات والضربات دون أن تراها أو تستطيع لها دفعاً أو تملك لضربها رداً، وإذا كان الرجل الذى يأتى بحضوره الشخصى للكلام فى ندوة أو مهرجان خطابى يراعى مشاعر الجمهور ويحترس فى حديثه كى لايقول شيئاً يستفزهم أو يغضبهم وإذا أراد أن يقول شيئاً مجافياً للحقيقة تحايل على تمريره بأساليب لاتصدم مستمعيه ولاتستهين بذكائهم.

وإذا كان المتعامل بالكلمة المكتوبة يعرف أن كلامه سيكون وثيقة تبقى شاهداً عليه فى حياته وبعد مماته، ويستطيع كل إنسان أن يعود إليها متى شاء ويواجهه بها إذا احتوت تحريفاً أو تشويهاً، فإن قارئ التعليق الإذاعى يعرف إنه بمنجاة من كل ذلك، ولهذا فهو يجلس مطمئناً خلف ناقل الصوت، وداخل غرفة البث التى تغلفها العوازل وتحيط بها الحراسات ويرسل حديثاً عبر الهواء يقول خلاله ما شاء دون أن يخشى محاسبة أو مراجعة، وإذا كانت طاقية الإخفاء أسطورة استفاد منها أصحاب القصص والأشرطة الخيالية فإنها تحولت مع قارئ التعليق الإذاعى إلى حقيقة من حقائق الواقع الذى نعيشه كل يوم، فهو يرتدى طاقية الإخفاء، ويمارس ما شاء من عبث بنا واستهتار بمشاعرنا وليس غريباً بعد ذلك أن يصبح هذا العصر الذى هو عصر إنجازات العلم وتدفق المعلومات وإلغاء المسافات هو أيضاً عصر الأكاذيب الكبيرة وعصر برمجة العقول البشرية فى قوالب مثل قوالب الأحذية، وإذا قال مذيع فى الصين أن مسرحية «هاملت» خطر علينا، تنادى ألف مليون مواطن يطالبون بشنق كاتبها الذى مات منذ أربعمائة عام.

إن هذا الصوت الشبحى الذى يركب الهواء ويزيف التاريخ ويقلب الحقائق يعتمد فى ترويضك على عامل واحد هو الزمن، فهو يعرف أنك تغضب وتثور مما يقوله من أكاذيب، ستفعل ذلك فى اليوم الأول والثانى والثالث وقد تقفل المذياع وتذهب ساخطاً إلى المطبخ فتحرق أصابعك وأنت تحاول إعداد كأس من الشاى يعيد إلى أعصابك المتوترة هدوءها، وما أن تمضى بضعة أيام حتى تسأم من لعبة حرق الأعصاب والأصابع وتترك المذياع مفتوحاً وتحاول إهماله ونسيانه وعدم المبالاة بما يقوله من هراء ثم تدريجياً ومع مضى الأيام تكون أكاذيبه قد تسربت إلى وعيك ولاوعيك

وأسهمت فى تكوين قناعاتك دون أن تدرى. إلى أن تكتشف أنك صرت تردد بعض ما سمعته وتنسبه إلى نفسك، كما صرت تسمع بعض ماقاله المذياع يتردد على ألسنة أصدقائك، وشيئاً فشيئاً يكون الصوت الشبحى الذى جاء يركب الهواء، ويلتحف بالسحب والظلام قد احتواك إلى الأبد.

***

برغم أن وسائل الإعلام الجماهيرى من إذاعات مسموعة ومرئية صارت تحتل واجهة الإعلام الحكومى فى الوطن العربى إلا أن الصحف التى تصدرها وزارات الإعلام التى تتكلم باسم الحكومة مازالت تحظى بأهمية كبيرة كمصدر معلومات ووسيلة تواصل بين الحاكم والمواطن، ومن هنا وجب التعامل معها باعتبارها إحدى حقائق الواقع الإعلامى الذى لابد من فهمه إذا أردنا تحسينه وتطويره.

والمعادلة التى تفشل أغلب هذه الصحف فى حلها هى تلك التى تتعلق بتحقيق التوازن بين إرضاء الحاكم وإرضاء المواطن. ومن يوالى قراءة هذه الصحف لابد أن يصل إلى نتيجة مفادها أن مايمكن أن يرضى الحاكم لابد أن يثير استياء المواطن وما يمكن أن يرضى المواطن لن ينال رضا الحاكم. وهى بالتأكيد نتيجة خاطئة أدت إليها مجموعة من الفرضيات الخاطئة التى تجعلها الصحف الحكومية قاعدة لانطلاقها. إذ لاشك أن هناك منطقة ما يمكن أن يلتقى عندها أبناء الوطن الواحد حكاماً ومحكومين، ولكن الصحافة الحكومية لاتجتهد فى البحث عن هذه المناطق التى يمكن أن تنقذها من أزمتها الدائمة.

إنها من موقع وظيفى روتينى يمنح ولاءه المطلق للحاكم، تسرف الصحيفة الحكومية فى كيل الشكر والثناء للحاكم طوال الوقت ودون أن تجهد نفسها فى البحث بصدق ومثابرة عما يستحق الثناء، وكثيراً ما نراها

تصفق وتهلل لصدور قانون تعسفى أو تعطيل لإحدى مواد الدستور أو خرق لنصوصه وتتحدث عنه وكأنه إنجاز حضارى وعمل جليل لصالح الشعب بدل أن تكتفى بتقديمه تقديماً يتفق ومهمتها الإعلامية واعتبار هذا القانون التعسفى أو الخرق الدستورى إجراء طارئاً يجب أن ينتهى بانتهاء أسبابه.

إنها فى الوقت الذى تتخذ فيه هذا الموقف المفرط فى تأييده للحكومة إلى حد الكذب والافتراء أحياناً، تنسى كل شىء عن احتياجات المواطن وهمومه وقضاياه فتعامله باستفزاز ودون احترام لعقله أو مراعاة لمشاعره.

وبطبيعة الحال فإن أحداً لايطالب الصحيفة الحكومية أن تكون أكثر مما هى مؤهلة له.. لايطالبها أن تكون شيئا آخر غير صوت الحكومة، المعبرة عن سياستها، المؤيدة لها فى قراراتها، المتفانية فى الدفاع عن مواقفها، لايطالبها أن تتكلم بلغة المعارضين أو أن تتحول إلى منبر من منابر حرية الرأى والتعبير ولكن ما نطالبها به هو حد أدنى من الصدق والموضوعية والأمانة الصحفية فى نقل الأخبار. وبرغم أن هذه الصحف غالباً ماتسمى نفسها الصحف القومية تمييزاً لها عن الصحف التى لاتصدرها الحكومة، وغالباً ما تضع شعاراً تحت عنوانها تقول فيها «إنها الناطقة باسم الشعب» فالقراء يعرفون أن هذه التسميات والشعارات واللافتات مجرد كلمات خالية من أى محتوى أو دلالة ولذلك فإن أحداً لايطالبها بأن تطبق الشعارات التى ترفعها. إننا نقول إنه مهما كانت المساحة شاسعة بين بعض الحكام والمحكومين فإن هناك هامشاً للحركة فيما يخص التعبير عن احتياجات المواطنين ومطالبهم وشكواهم وإنها باجتهاد بسيط يمكن أن تحقق رضا المواطن بالإضافة إلى رضا الحاكم وتمد جسور الثقة والتفاهم مع القراء وتحتفظ لنفسها بحد من المصداقية يؤهلها لأداء رسالتها فى تحقيق

التواصل بين المواطنين والحكام.. ولعل بعض الصحف الحكومية قد أفلحت فى أداء هذه المهمة، فلكل قاعدة ـ كما يعلم القراء ـ استثناء.

***

كان احتمالاً مرعباً ذلك الذى تصور صديقنا الشاعر والكاتب خالد محادين حدوثه، وهو أن يأخذ المصححون فى الصحيفة إجازة لمدة أسبوع كاختبار نعرف من خلاله مدى إتقان كتابنا، كباراً وصغاراً، للغتهم العربية.

أقول ذلك لأننى على يقين بأن أغلب كتاب الصحيفة بمن فيهم خالد محادين سوف يمتنعون عن الكتابة ذلك الأسبوع. وأعترف هنا أننى شخصيًا لا أتصور أن يذهب المقال الذى أكتبه إلى المطابع دون مراجعة من لغوى متخصص. وبرغم أننى أحاول دائماً مراجعة معلوماتى اللغوية، والاستيلاء على كتب المقرر اللغوى التى يقرأها أطفالى لاستذكار ماسقط من ثقوب الذاكرة، وتدارك ما كنت أرتكبه من أخطاء، وكتابة نص نظيف منها، إلا أننى لا أستطيع أن أنام هانئ البال إلا إذا وجدت معلم لغة يعتمد النص الذى كتبته، وأعتقد أن هذا هو حال عدد كبير من الكُتَّاب ممن فاتهم الالتحاق بكليات اللغة العربية. ولم أستغرب عندما ذهب المهنئون إلى بيت نجيب محفوظ يوم فوزه بالجائزة فوجدوا أن الكتاب الذى كان يقرؤه كتاب فى قواعد اللغة العربية. والذى يتابع البحوث التى ينشرها الدكتور على شلش لمؤسسى النهضة الفكرية الحديثة فى الوطن العربى سوف يندهش لما يعثر عليه الباحث من أخطاء نحوية لكُتَّاب عمالقة فى حجم العقاد وغيره. وكان معروفاً عن طه حسين أنه يأتى بمن يراجع معه معلوماته اللغوية ويقرأ له كتب النحو. وكل من اشتغل فى مطابخ الصحافة الأدبية يدرك مدى ما يقع فيه الكاتبون من أخطاء مهما كانت تخصصاتهم قريبة من الميدان اللغوى.

وأنا لا أعرف لغات أخرى، سوى اللغة الإنجليزية، يمكننى أن أقارن بينها وبين اللغة العربية فى مجال النحو وقواعد اللغة، وقد كتبت بهذه اللغة بعض المقالات وألقيت بعض المحاضرات وأنجزت أطروحة فى مجال الأدب، ولم يكن «النحو» مسألة تقلقنى أو تشغلنى كما يحدث عندما أكتب باللغة الأم، فالنحو فى اللغة الإنجليزية، وأنا أتحدث هنا عن الاستعمال العام لا عن القضايا التخصصية، سهل وميسور لكل من نال حظّا من التعليم المبدئى، وبإمكان أى صبى أكمل دراسته الابتدائية أن يكتب نصّا خالياً من الأخطاء النحوية. ولا أحد يجادل فى أن اللغة العربية هى من أكثر لغات العالم غنى وثراء، وهى لغة سايرت التطور واستوعبت التحولات الفكرية والعلمية التى رافقت مختلف المراحل التاريخية، ولكن قواعد نحوها وصرفها تحتاج إلى جهد علمى كبير من أجل تبسيطها وتيسيرها، خدمة لهذه اللغة ولأهلها فى عصر لم يعد يتيح ترف أن يكون الإنسان عالماً لغوياً قبل أن يدرس العلوم الأخرى، وإذا كان أسلافنا من مثقفين وعلماء أكثر إتقاناً للغة من هذه الأجيال، فما ذلك إلا لأنهم كانوا يصرفون جزءاً من أعمارهم فى دراسة اللغة وأسرارها فقد كانت ثقافة عصرهم، ثقافة فقه، وبيان، وكلام. ثقافة فى أغلبها دينية وأدبية، أما اليوم وبعد ما حدث فى العالم من ثورة معرفية نقلت الثقافة والعلوم والمعارف إلى هذه المجالات التخصصية باتساعها وتنوعها فإن كل هذه القضايا صارت تحتاج إلى معالجة جديدة، وإلى لغة جديدة فى الخطاب تختلف عن لغة «رمونى بعقم فى الشباب وليتنى..» التى كان يتكلم بها أسلافنا الأجلاء.

***

كثيراً ما نقرأ كتابات فى الصحف تعبر عن سخط وتذمر أصحابها من

هذه الأهمية الكبيرة التى يوليها الرأى العام ووسائل النشر والاتصال بحادث سير تعرضت له إحدى الفنانات، أو بأحاديث وتصريحات لاعب كرة أعلن اعتزاله.

ويرى أصحاب هذه الكتابات فى الاهتمام بالقضايا الصغيرة والهامشية تلهية للجماهير وانصرافاً عن معالجة القضايا الأساسية فى الحياة وهروباً من مواجة المشاكل الحقيقية للمجتمع واستغراقاً فى مواضيع تافهة لا تخدم الحياة العامة ولا تقدم مردوداً نافعاً يسهم فى تحسين الأحوال المعيشية، ويعتبرون أن هذه الضجة - التى تجعل من حادث مثل هذا حديث الناس وموضع تفكيرهم واهتمامهم - تركيز غير بريء على الجانب العابث فى الحياة وتغليبه على الجوانب الأخرى، خاصة عندما يحدث هذا فى بلاد الكثافة السكانية من أقطارنا العربية بكل ما يواجه الوطن من مشاكل اقتصادية مستفحلة تحتاج إلى اليقظة والتوعية واستنفار عقل الأمة لكى تواجه به التحديات الخطيرة، وبرغم أننى أفهم غيرة هؤلاء الكتاب وأشاركهم الحرص على أن تبقى مشاكل الوطن الكبرى فى بؤرة التفكير والاهتمام، إلا أننى لا أشاركهم الرأى فى أن ذلك يأتى خدمة لمخطط يسعى لعزل الناس وتتفيه القضايا الكبيرة وتهميشها، بل على النقيض من ذلك فأنا أرى أن الاهتمام باللاعب الذى وصل إلى آخر الشوط أو الفنانة التى تعرضت لحادث السير إنما هو دليل صحة وعافية، وهو اهتمام لايصدر إلا عن نفسية سوية ومزاج لم تفسده نشرات الأخبار السياسية، وسأكون أكثر قلقاً على العافية النفسية للمجتمع لو أن حياتنا خلت من كل هذه القضايا التى ينشغل بها الرأى العام، إذ معنى هذا الانشغال أن المواطن فى بلادنا مازال لم يجعل من حياته ارتهاناً كاملاً للمشاكل المعيشية، ومازال قادراً على الاحتفاظ بهامش من حياته وجزء من روحه وقطعة من قلبه لم تمضغها

وتسحقها طواحين المشاكل المعيشية والكوارث السياسية، لأن حجة هؤلاء المنتقدين أن هناك فى أوطاننا من المشاكل والهموم ما يغنينا عن ترف هذا الحديث، بعد أن ارتفع ثمن الرغيف، واستفحلت أزمة الإسكان وتضاعف حجم الديون وضاعت القيمة الشرائية للجنيه، فإلى مثل هذه القضايا يجب أن ينصرف الاهتمام. والمغالطة فى هذا المنطق أنه لايرى المواطن إلا نبتة لاتتغذى ولاتعيش إلا على الكوارث والهموم والأزمات والمشاكل، وينسى أن الإنسان مهما كان مأزوماً ومسحوقاً ومطحوناً لابد أن يحقق إنسانيته بالارتفاع فوق هذا الانسحاق والتأزم فيتابع أخبار النجوم ويحضر المباريات الرياضية ويشاهد البرامج الاستعراضية فى التليفزيون ويقرأ القصص ويذهب إلى الشواطئ فالحياة ليست مجرد وجه قاتم لا إشراق فيه، والحديث عن الفنانين ولاعبى الكرة ليس بالضرورة تعطيلاً للتفكير فى قضايا العملة والديون وتحديد النسل وتنظيم الأسرة، فالورق مازال لم ينفذ من الدنيا بعد، والصحف التى تصدر فى الوطن العربى تملك براحاً يتسع لنشر كل الآراء والأفكار ومعالجة كل القضايا وإرضاء كل الاهتمامات. وأصارحكم الحقيقة بأننى إذا ما وجدت فى صحيفة الصباح تحقيقاً عن تلوث المياه التى نشربها فى بيوتنا واستجواباً صحفياً مع الفنانة شريهان فإننى سأذهب مسرعاً وسعيداً لقراءة ما تقوله الفنانة شريهان متأملاً صورتها متلهفاً لمعرفة مشاريعها الفنية بعد أن استعادت صحتها، مؤجلاً النظر فى الموضوع الثانى لكى لايفسد مزاجى ويعكر صفو أفكارى مع بداية النهار.

***

برغم أننى أحمل صفة «صحفى» فى جواز سفرى إلا أننى عشت مجاوراً للصحافة ولست واحداً من أهلها. والصحافة مهنة تطبع الإنسان

بطابعها وتلون حياته وسلوكه بألوانها وتربطه كعرائس الأساطير بشعرها فلا يستطيع أن يترك هذه المهنة أو يتواءم مع أى مهنة أخرى حتى لو بقى جائعاً وعاطلاً ومشرداً.

ورغم ما طرأ على التقنيات الصحفية من تقدم مهول فإن هذا التقدم لم ينقص من الأعباء التى يتحملها الصحفى، وإنما أضاف إليها أعباء أخرى، فهو مطالب فى هذا العالم الذى يدور مع دورة الأقمار الصناعية أن يمضى راكباً لاهثاً ويعمل بوتيرة تتفق مع سرعة هذه الدورة. وبعكس المهن الأخرى التى يمكن أن تتعامل معها دون أن تعتدى على الجانب الشخصى من حياتك وتأخذ منك ساعات العمل التى تريدها ثم تترك لك هامشاً لاختيار مواعيد نومك وصحوك وساعات ترفيهك وراحتك، فإن مهنة الصحافة لاتعرف هذا كله، إنها تتدخل فى حياتك فتصيغها لك بما يناسبها ويتفق معها، فأنت لامجال لك لاختيار ساعات نومك ويقظتك أو مواعيد الغذاء أو العشاء أو أوقات الترفيه والراحة وأيام العطلة والإجازة، ولا أدرى إذا ما كانت الصحافة تحدث تغييراً فيزيولوجيا لدى الناس الذين يختارونها مهنة لهم، فتضيف شيئاً مميزاً إلى سحناتهم يجعلنا ندرك عندما نراهم أنهم أبناء هذه المهنة، فهو مجرد إحساس أحس به وأنا أعايش أصدقائى الصحفيين دون أن أملك أى دليل على إثباته، كما لا أستطيع تحديد طبيعة هذا التغيير أو أعرف على وجه اليقين المدة التى يجب أن يقضيها الشخص عاملاً بالصحافة حتى يظهر على وجهه هذا التغيير، وإذا اختلفنا حول هذه التأثيرات العضوية فلن نختلف حول التأثيرات النفسية التى تلحق العاملين بالصحافة وتجعلهم يختلفون عن بقية البشر. ولعلك التقيت بمثل هذا الصحفى الذى يتحدث عن اللحظات السعيدة فى حياته فاستبشرت خيراً بهذا الحديث واستمعت باهتمام إلى كلماته ظناً منك أن

لحظات السعادة تعنى لديه ما تعنيه لديك، إلى أن اكتشفت أن لهؤلاء الصحفيين قاموساً يختلف عن القاموس الذى ستعمله فى تعاملنا وأن السعادة بالنسبة لهم تختلف عن سعادتنا، فهو يتحدث بغبطة وفرح عن ضربات الحظ التى صادفته عندما سافر إلى الهند، والسماء التى فتحت له أبوابها لأنه ما أن أمضى يوماً واحداً فى الهند حتى نكب أهل تلك البلاد باغتيال زعيمتهم أنديرا غاندى، فكان هو جاهزاً لتغطية الحدث وتحقيق سبق صحفى ويحدثك بحماس عن مناسبة أخرى ابتسم له فيها الحظ وأشرقت فى سمائه أنجم السعد والنجاح لأنه ما أن وصل إلى أسبانيا حتى وقعت أكبر كارثة طيران فى الدنيا عندما ضربت طائرة جامبو طائرة أخرى مثلها فكان هو جاهزاً لإحصاء عدد الضحايا.

وكدليل على ذلك انظر إلى أسلوب تعامل الصحفيين فى الغرب مع السياسيين وكيف يصنعون مجد أحد السياسيين عندما ينشرون له الصور وينسبون إليه الحكم والفكاهات ويقومون بتسويقه إلى الرأى العام المتعطش إلى الوجوه الجديدة، ثم يبدأون بعد ذلك فى تحطيمه ونشر الفضائح عنه تمشياً مع قوانين الإثارة والتشويق. وبحثاً عن مزيد من الإثارة يذهبون للتفتيش عن الفندق الرخيص الذى قضى به نهاية الأسبوع. ولعل سبب هذا التغيير الفيزيولوجى الذى يصيب أنوفهم فتبدو مستديرة حمراءجاء نتيجة وقوفهم الطويل فى ليالى البرد والشتاء أمام الفنادق الساحلية التى يزورها السياسيون فى نهاية الأسبوع رفقة نساء لايشبهن زوجاتهم

***

منذ أعوام كثيرة مضت شاهدت أثناء زيارة إلى تركيا تقليداً صحفياً أعجبنى فعدت أدعو إلى تحقيق شئ مثله على مستوى اتحاد الصحفيين العرب، ولأن دعوتى تلك لم تجد صدى فى ذلك الوقت، ولأن الفكرة

مازالت لم تفقد بتقادم الأيام وجاهتها، فقد أردت اليوم ومن فوق هذا المنبر الأكثر انتشاراً أن أعود إلى طرح الموضوع مرة أخرى.

وخلاصة ما رأيت فى تلك الزيارة هو أن الصحف اليومية الصادرة فى تركيا، وقد كانت كثيرة فى تلك الأيام، تتوقف جميعها عن الصدور فى عيد الأضحى ليتولى اتحاد الصحفيين إصدار صحيفة واحدة بدلاً منها اسمها «بيرام» (أى العيد) تحتوى على أهم الملامح والأبواب التى تتميز بها تلك الصحف التى تعطلت بمناسبة عيد الأضحى، صحيفة يلتقى على صفحاتها أشهر كتاب الصحف التركية وتقدم خلاصة مركزة لأهم وأشهر المواد الصحفية التى تعود أن يلتقى بها القراء فى الصحف الأخرى.

إنهم يجعلون من العيد فرصة للتعبير عن موقف موحد، يرمزون به إلى وحدة الوطن، ولذلك فإن الكتاب من صحف اليمين واليسار، المحافظين والاشتراكيين ينسون خلافاتهم ويلتقون فوق منبر صحفى واحد هو صحيفة «بيرام».

لاأدرى إن كان هذا التقليد الجميل لازال مستمراً، فقد عصفت بتركيا خلال الأعوام الماضية أعاصير وعواصف وأهوال أطاحت بأكثر التقاليد عراقة وجمالاً، ولكننى أتمنى أن أرى عملاً كهذا يتحقق على مستوى صحافتنا العربية وأن يرى القارئ العربى فى عيد الأضحى القادم صحيفة اسمها العيد تصدر خلال أيامه الأربعة يشارك فى تحريرها كبار الصحفيين العرب وتحتوى على أهم الأبواب والزوايا الثابتة التى يتابعها القراء فى صحف مثل : الشرق الأوسط، والأهرام، والسفير، والنهار، والوطن، والقبس، والاتحاد ، والبيان، والمدينة، والعلم، والعمل، وتشرين، والثورة، والجمهورية، والفجر الجديد . وأن يخصص ريعها لإنشاء صندوق لإعالة أسر الشهداء الذين سقطوا على طريق الكلمة بدءاً من النقيب «رياض طه»

إلى عميد الرسامين الصحفيين «ناجى العلى».

ستحقق صحيفة «العيد» رقماً قياسيًا فى التوزيع وستكون عملاً جليلاً يعبر به الكتاب والصحفيون عن حقيقة الوحدة التى تربط بين أبناء هذا الوطن برغم العسس وحراس الحدود.

***

هذا المرشح الرئاسى الأمريكى الذى خسر السباق.. ما الذى سيحدث له الآن؟

فجأة تنطفئ من حوله الأضواء الساطعة، وتطوى السرادقات الكبيرة، وتتبخر الحشود الهائلة من البشر الذين يهتفون باسمه ويرسلون إليه صيحات الثناء والإعجاب والتأييد، وتختفى من أمام بيته آلات التصوير التى كانت تتابعه ليل نهار وتنقله من مكانه وتضعه فى قلب العالم لتتحول الكرة الأرضية إلى كرة من البلور الشفاف لانرى فيها إلا وجهه ووجه منافسه، حتى أصبح اسمه صنواً لأسماء أفراد العائلة فى كل بيت من بيوتنا، واحتل لأشهر شاشات التلفاز فى ديار نومنا وجلوسنا وأقام بها لا يغادرها طوال ساعات الإرسال، واحتل واجهات الصحف والمجلات التى نقرؤها بأية لغة من اللغات حتى حفظنا كل شىء عن حياته وصارت زوجته وأولاده وأصحابه جزءاً من حياتنا، نصبح ونمسى على ذكر أخبارهم وميولهم وطباعهم وهواياتهم كل هذا انتهى الآن وانتهت معه تلك القوافل الصحفية التى كانت ترافق رحلاته وتنقلاته وتتسقط أخباره وتسجل أحاديثه وهمساته وتستفيض فى ذكر أسلوبه فى العمل وأسلوبه فى النوم وأسلوبه فى تناول الطعام أو تناول الدواء. كل صغيرة وكبيرة فى حياته كان هناك من يتربص بها ويقوم بتسجيلها كما يقوم بتسجيل تاريخ حياته بكل تفاصيله وجزئياته مبتدئاً من جده الذى كان يعمل تاجر خردة فى اليونان.

وما أن خسر الرهان حتى زهد العالم فى معرفة أخباره أو هواياته أو قراءاته أو أخبار زوجته وأطفاله بمثل ما زهدت فى ذلك قوافل المصورين والصحفيين الذين حملوا أقلامهم وآلات تصويرهم وتسجيلاتهم وانصرفوا عنه.

لقد انتهى المهرجان الذى صنع منه وجهاً يملأ شاشة بعرض الأفق.

وعليه أن يعود إلى الظل، مجهولاً، ومغموراً مرة أخرى، ويلتحق بركب من سبقوه من متنافسين على الوصول إلى البيت الأبيض ممن عاشوا تحت الأضواء بضعة أيام ثم تواروا بعد سقوطهم فى الانتخابات إلى زوايا الإهمال والنسيان. فمن يذكر الآن جولد ووتر أو جورج ماكجفرن أو وولتر موندیل الذين شغلوا العالم بمثل ما فعل هذا المرشح الأخير ثم عادوا مرة أخرى إلى الظلام.

ولا أستطيع أن أتكهن بمدى شعور إنسان يعيش أياماً فى قلب الدنيا وتحت هذه الأضواء الساطعة المبهرة، مستقطباً أنظار شعوب العالم بأكملها، ثم فجأة يجد نفسه وقد عاد إنساناً مغموراً لن تهتم حتى جريدة قروية بنقل أخباره أو تصريحاته.

كل ما أستطيع أن أغامر بقوله إن حياته لن تعود كما كانت قبل أن يجرب الحياة فى هذا الأتون من المجد والشهرة والأضواء، سوف يبدو كل شىء فى حياته باهتاً، ماسخاً، لاطعم له ولالون ولارائحة، كل المناسبات الصغيرة التى يفرح بها الناس ويصنعون منها أعياداً يبتهجون بها سوف تبدو بعينيه بائسة وتافهة لاتستحق أى فرح أو انفعال، فما أهمية أن يأتى إليه بعض جيرانه يصطحبون زوجاتهم لتهنئته بعيد الميلاد ويتحملون عناء نشر تهنئة له مرفقة بصورة الاحتفال فى الصحيفة المحلية، وهو الذى كان ذات يوم موضع احتفال شارك فى حضورة آلاف الملايين من البشر وكانت

صورته مثل شمس النهار تشع فوق الكرة الأرضية بكاملها.

إن ذلك المهرجان بقدر ما أعطاه لحظات مثيرة مبهرة، فقد أفسد قدرته على الاستمتاع بمباهج الحياة الصغيرة، وسيظل يقارن متعة أى شىء يلاقيه فى الحياة بتلك المتعة التى نالها فى ذلك المهرجان الاستثنائى الذى لن يحظى بشىء يماثله فيما تبقى له من أيام.

***

منذ أعوام مضت كانت محطة الإرسال التليفزيونى فى أحد أقطارنا العربية تستهل نشرات أخبارها بخبر واحد يتكرر كل يوم هو خبر الحمَّام الذى يأخذه السيد الرئيس فى حوض سباحة القصر. ومهما كان ذلك اليوم مملوءاً بالأحداث الخطيرة والوقائع التى تهتز لها الدنيا فقد كان أول خبر وأهم خبر يجب أن يشاهده المواطن على الشاشة الصغيرة هو حمَّام السيد الرئيس. وهذا الكلام ليس من باب المبالغة فى الوصف، وليس حديثاً من أحاديث العبث واللامعقول، وإنما هو واقع كان مواطن ذلك القطر العربى يشاهده منقولاً على الشاشة كل مساء ويضطر إلى قبوله وهو صابر صامت.

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن هذا الرئيس لم يكن صاحب مواقف وطنية وبرامج إصلاح وتنمية نفذها باجتهاد فأخطأ وأصاب كما يفعل كل البشر. فهذا موضوع آخر سيتولى التاريخ قول الكلمة الفصل فيه.

إننى هنا أتحدث عن الجانب الذى يتصل بتعامله مع وسائل الإعلام باعتباره يمثل حالة مرضية ويقدم مثلاً صارخاً لمدى اجتراء بعض الحكام على شعوبهم ومبلغ ما وصل إليه تفكيرهم لكيفية استخدام هذا الإنجاز العلمى والعقلى بحيث يحيدون به عن مهمته الحضارية فى التوعية والتثقيف ويحيلونه إلى أداة إذلال للناس وتسفيه لعقولهم ويجعلون منه

مناسبة للتنفيس عن عقد الاستعراض وجنون العظمة.

لقد أزيح هذا الرئيس عن منصبه لأسباب كثيرة أخرى لاعلاقة لها بحمامه اليومى الذى كان يأخذه أمام آلات التصوير ويعرضه كل يوم على الناس. ولكننى على ثقة من أن الشعب كله تنفس الصعداء عندما شاهد لأول مرة نشرة أخبار مرئية لايكون الخبر الأول والرئيسى فيها هو «حمام السيد الرئيس». ولعل بعض القراء لايرضيهم أننى أضرب مثلاً برئيس تم عزله وانتهى عهده ولم يعد له خطر أو شأن ويعتبروننى أفعل ذلك تقية وتجنباً للحديث عن أخطاء حكام مازالوا يتربعون على سدة الحكم أخشى بطشهم وبأسهم، ولاشك أن الحديث عن أخطاء رئيس خرج من الحكم أكثر أماناً من الحديث عن رئيس لم يخرج بعد، هذا صحيح، ولكن ما ليس صحيحاً هو أن الحاكم إذا أقصى عن منصبه وجب التستر عليه والامتناع عن كشف أخطائه وجرائمه. وكأن الحصانة التى تمتع بها طوال عهده الذى استمر لأكثر من ثلاثين عاماً لاتكفى حتى نضيف له حصانة أخرى بعد خروجه من الحكم. إن الحديث ليس حديث تذكير بمثالب الحكام، إنه تنبيه لخطورة هذا المنطق الإعلامى الذى يستعمله بعض الحكام بطريقة مشوهة ممسوخة فيسيئون إلى شعوبهم بمثل ما يسيئون إلى أنفسهم.

***

لا نملك رصداً دقيقاً لاتجاهات القراء فى العالم العربى ومعرفة ما يقبلون عليه من قراءات أو ما ينفرون منه، وحتى لو أجرينا مثل هذا المسح فإن الصورة ستبقى ناقصة لأن القارئ محكوم بمجموعة من العوامل، أهمها أنه لايستطيع الحصول على ما يريده من كتب نتيجة لما تقيمه سلطات الرقابة ومكاتب تحويل العملة من حواجز وعقبات أمام تداول الكتاب. وكل ما

يمكن فهمه من بعض الناشرين هو أن الشعر هذه الأيام بات لايلاقى ذات الإقبال الذى كان يلاقيه منذ سنوات مضت، وإن قراء اليوم أكثر إقبالاً على قراءة الأعمال الروائية والكتب التاريخية وما يتصل بالتراث والمذكرات والسيرة الذاتية. وإن صدق هذا القول فمعنى ذلك أن هناك أزمة يعانى منها الشعر على مستوى التواصل والعلاقة مع الجمهور، وهى أزمة لاتكمن فى الشعر وحده، إنها تكمن أيضاً فى هذه المرحلة التاريخية التى نمر بها والتى خلقت مناخاً عامّا لايصلح لقراءة الشعر، وليس معنى ذلك أن الشعر يريد هناء واسترخاء واستقراراً نفسيًا يأتى كنتيجة لاستقرار الحالة السياسية والأوضاع الاجتماعية لكى تتأكد حاجتنا إليه، فلقد أثبتت التجارب بأن مراحل النضال والجهاد بحاجة أيضاً إلى الشعر الذى يذكى الهمم ويضىء النفوس ويكون زاداً روحيًا ووجدانيًا للمناضلين، ولم يكن الشعر ليحظى فى تاريخنا الأدبى بهذه المكانة الرفيعة إلا لأنه خاض معارك تأكيد الذات وترسيخ الهوية وأسهم فى تربية الوجدان المشترك بمثل ما أسهم فى بلورة القيم الحضارية لهذه الأمة. إذن فالقضية ليست قضية استقرار سياسى أو غياب هذا الاستقرار، إنها قضية مرحلة تاريخية عامرة بالتناقضات الداخلية والمؤامرات الخارجية والصراعات الدولية التى جاءت كنتيجة للفورة النفطية.. مرحلةتاريخية تميزت بعدم وضوح الأهداف الكبيرة التى تجتمع حولها الأمة كما كان الحال خلال مراحل التحرير الوطنى ولهذا غمرت الفوضى الآراء والأفكار وانتشرت الفتن والنزاعات الداخلية وصار الأخ يرفع السلاح فى وجه أخيه عربيًا كان أو مسلماً، وننتظر حرباً نعيد بها تحرير الأرض وتصفية الحساب مع أعدائنا التاريخيين فإذا بالحرب التى تتفجر ضارية عنيفة هى حرب تتفجر بين بلدين إسلاميين، وخلال هذا كله تقوضت الكثير من الأحلام، وغمر التعتيم الكثير من الأهداف الكبيرة،

وفقدت الشعارات مصداقيتها، وتم تكريس الناطق الرسمى كممثل وحيد للفكر والثقافة، وأخرج المبدع الحقيقى من دائرة الفعل والتأثير، وأنتج كل هذا مناخاً من الإحباط والشعور بالخيبة والإحساس بلا جدوى الأشياء، وبرغم بوادر الأمل التى صارت تلوح فى الأفق منذ أن بدأ أطفال الحجارة يسطرون ملحمة النضال والثورة داخل الأرض المحتلة، ويفرضون نوعاً من التضامن العربى، ومنذ أن بدأت تهل البشائر بانتهاء حرب الخليج إلا أن الصورة مازالت لم تفقد قتامتها، وانعكس هذا الحال على منتجى الشعر أنفسهم الذين انقسموا بين شعراء الضحالة والغثاثة وبين شعراء الجودة التى أفسدتها أمراض العظمة وتضخيم الذات وتضاءل هامش الحرية الذى يسمح بالنقد والتعبير الصادق إلى أن وصل حده الأدنى، وانطفأت المشاعل الثقافية التى أضاءت قليلاً فى بيروت وسقط كل شىء فى ظلام الفتنة والحرب الأهلية وهاجرت أغلب المنابر الصحفية والثقافية إلى خارج الوطن، وفى حين انكفأ شاعر على ذاته رافضاً أى تواصل مع الدنيا التى حوله، التحق شاعر آخر بمكتب الناطق الرسمى وقرر شاعر ثالث الانتحار المادى والمعنوى، وظل شاعر رابع يقاوم وحده الإعصار وصدأ السنين، زد على ذلك أن أشكالاً جديدة نسبيّا على تراثنا الأدبى مثل «الرواية» استوعبت الكثير من أدوات الشاعر وأسلوبه وصارت قادرة على احتواء هذه التناقضات والتعامل مع الواقع الجديد وتلبية احتياجات القارئ بأكثر ما تستطيع القصيدة فتراجع بسبب ذلك الإقبال على قراءة الشعر وفقد الشاعر العربى مكانته التى ظل يحتلها على مدى القرون.

***

دونما تردد أو إبطاء أجبت قائلاً:

ـ التمثيليات التاريخية.

كان ذلك ردّاً حول سؤال ما أراه صالحاً لمشاهدة أطفالنا فى برامج الإذاعة المرئية. وكان دافعى إلى هذه الإجابة سبب آخر غير الأسباب التى ترد إلى الذهن عند الحديث عن مثل هذه التمثيليات، فهى بلا شك تستخدم اللغة العربية الفصيحة أداة للحوار مما يساعد فى القضاء على آفة الانفصام اللغوى التى يعيشها الطفل العربى عندما نغرس فى وجدانه جمال التعبير باللغة العربية الفصيحة منذ مراحل العمر المبكرة، ثم إن هذه التمثيليات بجوار قيمتها الترويحية والجمالية فهى تقدم قيمة معرفية، ومعنى ذلك أنها إثراء وإغناء لحصيلته العلمية بما تسرده من أحداث ووقائع تاريخية، وهى فوق هذا وذاك وسيلة ناجحة لتعميق إحساسه بالانتماء عندما يتصل موضوعها بالتاريخ العربى والفتوحات الإسلامية، فهى إذن مادة وجب تفضيلها على مواد التلفاز الأخرى تحقيقاً لهذا الهدف من الأهداف التربوية، ولكننى لم أكن أفكر فى هذه الأسباب عندما بادرت بإبداء رأيى، إن هناك سبباً آخر أكثر اتصالاً بالجوانب العملية لتربية الأبناء، وهو أن هذه التمثيليات هى المادة الوحيدة التى يمكن أن يشاهدها الطفل العربى ويرى فيها بشراً يتكلمون ويتحركون على الشاشة وهم لايمسكون بين أصابعهم أو يضعون بين شفاههم ذلك الشىء الذى صار مكملاً لأى كائن تليفزيونى والذى اسمه السيجارة.

فلقد امتحنتنا الأقدار بعدد من المخرجين والممثلين الذين لايستطيعون تقديم مشهد فى تمثيلية عصرية إلا إذا ملأوا الشاشة الصغيرة بدخان سجائرهم، يعبرون بها عن بهجتهم بمثل ما يعبرون بها عن بؤسهم، وكأن التمثيل لايستقيم إلا بامتصاص السجائر والمشهد يفقد قيمته الجمالية إذا بقى خالياً من المنافض.

ولاشك أن هؤلاء الممثلين والمخرجين يجدون أنفسهم فى مأزق شديد

الحرج عندما يضطرون إلى تقديم تمثيليات عن «موسى بن نصير» أو «طارق بن زياد» أو «خالد بن الوليد» حيث لامجال للاعتماد على السيجارة فى الإخراج والتمثيل.

إننى أتكلم عن التمثيلية باعتبارها أكثر تأثيراً فى المشاهد الصغير من البرامج الأخرى، فهو غالباً ما ينظر إلى نجوم الشاشة الصغيرة باعتبارهم مثله الأعلى الذين يحب تقليدهم والاقتداء بما يفعلون، ولكن ليس معنى ذلك أن بقية البرامج أفضل حالاً أو أكثر حرصاً على مصلحة المشاهدين.

وكما يحدث فى بعض الأماكن التى تخصص ركناً للمدخنين وآخر لغير المدخنين فإننى أقترح على اتحاد الإذاعات العربية أن يتولى تقسيم العمل فى هذه الإذاعات على نحو يجعل المدخنين يتفرغون للعمل بالإذاعة المسموعة حيث يبقى المجال أمامهم فسيحاً للتدخين كيفما شاءوا.

فى حين لا يظهر على الشاشة الصغيرة إلا من كان قادراً على هجر اللفائف البيضاء ومقاومة إغرائها.

***

هناك تعبير فى أمريكا يقول: Medium is the message وأستميح القارئ الكريم عذراً فى استعمال هذا التعبير الأجنبى الذى صار قولاً شائعاً يختزل معنى يحتاج تفسيره إلى بضعة أسطر، فهو يتعلق بالوسائط الإعلامية الحديثة وبأكثر هذه الوسائل قوة وخطورة وهيمنة على حياة الناس أى «التلفاز»، هذا الإنجاز العلمى الذى بسط نفوذه على طابع الحياة العصرية منذ بداية ظهوره وهو يزداد مع الأيام نفوذاً وسيطرة بفضل ما يواكب نموه من اختراعات حديثة كأجهزة التسجيل المرئى وأقمار الاتصال الدائرة فى الفضاء الكونى وأجهزة التحكم الآلى على المدى البعيد وغير ذلك من الأنظمة الإلكترونية المسخرة لخدمته وتطويره، حتى انتقل هذا الجهاز

الإعلامى من كونه وسيلة اتصال يستهدف تحقيق مقاصد وأغراض وخدمة أهداف ومضامين تتعلق بالأخبار والإرشاد والترفيه والتوعية، إلى أن أصبح فى حد ذاته هو الهدف والمضمون، لم يعد مجرد أداة حيادية لنقل الآراء والأفكار والمعلومات ووسيلة لتعميق وعى الناس بالقيم والمثل والمفاهيم وإنجاز حضارى يستخدمه الإنسان وفق حاجاته ورغباته وتوجيهاته وإنما صار هو الذى يتحكم فى توجيه الإنسان وصارت الآراء والأفكار والمعلومات والمفاهيم والقيم تتلون بلونه وتذوب فى شخصيته ، ويصبح الجهاز هو الفكر والقيمة والرسالة والمفهوم، لأنه أكبر من أن يكون مجرد وسيلة لأداء مهمة أو نقل رسالة، ولعل طبيعة الحياة فى أمريكا ونظام العلاقات بها هو الذى أنتج هذا التعبير الذى يتفق مع ما أصبحت عليه شبكات الإرسال المرئى هناك، حيث أضحى التلفاز مخلوقاً هائلاً مخيفاً مثل مخلوق «فرانكشتاين» الذى تمرد على صاحبه، فهو لاينتمى إلا لذاته ولايعترف بسيد إلا سيادته على نفسه. وهكذا أضحت الأداة ـ كما يقول التعبير الأمريكى ـ هى الرسالة، فلتفقد الأشياء معناها حتى لو كان هذا المعنى مثالاً عالياً أو قيمة أخلاقية، ولتفرغ من محتواها حتى لو كان هذا المحتوى ثقافة أو فكراً، إذ لامعنى ولامحتوى إلا لما يريده الجهاز، هذا الجهاز الذى صار مرشحاً أن يتحكم لا فى آراء الناس وأفكارهم فقط وإنما أيضاً فى أمزجتهم وطبائعهم وأخلاقهم وأسلوب معيشتهم، بحيث لايبتهجون إلا بأمره ولايحزنون إلا بعد مشورته، لايأكلون إلا ما يريده السيد الجهاز ولايشربون إلا ما يختاره لهم، لايتزوجون إلا بإذنه ولايرافقون إلا من أوصاهم بمرافقته، سوف يطيعونه فى كل صغيرة وكبيرة وسوف ينجبون أطفالهم حسب المقاييس والمواصفات التى يضعها لهم.

وبرغم ما تقوله استطلاعات الرأى العام حول الانتخابات الأمريكية فإن

عدسات التصوير التليفزيونى هى التى ستتولى اختيار الرئيس المقبل للولايات المتحدة الأمريكية.

ولكن السؤال الذى يبقى عالقاً بحلوقنا نحن العرب هو، لماذا يا ترى تكتسب هذه العدسات لونًا صهيونياً؟

***

لا أدرى إن كان هناك كتاب استخدموا هذا التعبير وجعلوه عنواناً ثابتاً لأبوابهم الصحفية قبل أن يستخدمه الدكتور سعيد عبده ويجعله عنواناً لمقالاته الطبية الأسبوعية بأخبار اليوم منذ أعوام كثيرة مضت وهو «خدعوك فقالوا» الذى كان يكتبه تحت اسم مستعار هو «بقراط» أشهر الأطباء فى عصر ما قبل الميلاد.

وقدم من خلاله جهداً موسوعيّا فى مجال التوعية الصحية والطب الوقائى وإزالة الأوهام ومحاربة الخرافات التى تتصل بالمرض والصحة. ولا أدرى إن كان هناك من تلاميذ الأستاذ عبده من اهتم بجمع هذه المقالات فهى مرجع يحتاج إليه كل إنسان. وما يعنينى اليوم هو أن هذا العنوان الذى اختفى من صحافتنا مع رحيل الدكتور (سعيد عبده) يجب أن يعود لأن هناك فى حياتنا من وسائل التضليل والتمويه والخداع ما يوجب عودة هذا العنوان ليكون ملمحاً ثابتاً فى الصحافة التى تهتم بتوعية القارئ وفرز الحقائق من بين الأباطيل التى تدخل بيته مع الضوء والهواء. ولن أكون مبالغاً إذا قلت إن أكثر أساليب التضليل والتمويه جاءت إلينا مع هذه الثورة التقنية الإلكترونية فى مجال الإعلاميات، وبقدر ما جلبت هذه الثورة من توعية وترفيه وما أغنت به حياتنا من تدفق الأخبار والمعلومات فقد جاءت تستصحب معها أساليب جديدة فى التموية واستلاب عقل المواطن وتكييفه مع برامجها والترويج لأفكار ليست دائماً ذات مضامين هادفة أو تخدم

قضـايا التطور والبناء، لقد دخل التلفاز حـياتنا دخولاً عاصـفًا مثيـراً وكأنه ساحر يدخـل إلى الساحة بألعابه وحـيله وفنون الخداع التى يتقنهـا، تدعمه الأجهزة الإلكترونيـة والأقمار الصناعية، وتنشأ من حـوله صناعات جديدة مـثيـرة، أطباق وهـوائيات تمـلأ أسطح البنايات، وأشـرطة وآلات تصـوير وتسـجـيل تملأ أرفف الخـزائن فى كل البـيـوت، وأسـلاك وكـوابل وأندية ودكاكـين وشركات احتكاريـة ومطابع سرية وأخرى علنيـة لنسخ الشرائط والأفلام، بكل ما يتبع ذلك من وسائل الغش والتزوير والتهريب والأسواق السوداء، جالباً معه أساليب جديدة للترفيـه وتزجيه الفراغ مع كميات كبيرة من الصخب والتمويه والأكاذيب، وهى جميعـها تستدعى أن ترافقها حملة تثقيف وتوعية وملاحقة مستمرة تكشف الخبيث من الطيب، والزبد مما ينفع الناس، حملة توعيـة تقول للمشاهد خدعوك فقـالوا فى التلفاز أو قالوا فى أشرطة الفيديو أو قالوا فى الإعلانات التى تقدمـها الشاشة الصغيرة أو قالوا فى مـسلسل دالاس أو داينستى أو غـيرها من تمثيليات وبرامج تروج لقـيم هجيـنة لاتتفق مع أخـلاقيـات مجتـمعـاتنا ومع ذلك نعرضـها فى إذاعـاتنا العربيـة. وليس معنى ذلك أننى أسعى لخلق مـعركة بين الكتـاب ومحطات الإذاعـة المرئية أو أريد تحـريض الصحـافـة ضد أجـهزة الإعـلام السمـعيـة والبصرية، ولكننى أدرك أن لهذه الأجهزة أخطاراً جانبية ترافق كل ما تقدمه لنا من نفع وترفيه، وكثيراً ما رأينا إذاعات مـرئية تتولى بنفسها تقديم برامج لكشف أوجه الـتضليل فى بعض المواد الإعـلامية التى تقـدمهـا، وأذكر أن إحدى مـحطات التليـفزيون البـريطانية كـانت تقدم برنامـجًا، لعلـه مازال مسـتمرًا، عنوانه «هذه الحيـاة» مهمتـه هى متابعـة شكاوى المشاهدين الذين ينخدعون فى البرامج الإعلامية أو المواد الإعـلامية، وتتولى مقدمة البرنامج كـشف هذه الشـركـات التى باعت إنتـاجـها أو قـدمت إعـلاناتهـا الزائفـة

للمحطة، ولاشك أن مثل هذا البرنامج لن يستطيع أن يقول كل شئ أو يفضح كل شىء ولكنه يؤكد إلى أى مدى يدرك أهل هذه المحطات مدى خطورة ما يقدمونه للمواطن كل يوم، ويضع المسئولية كاملة على أجهزة التوعية والتثقيف مثل الصحافة لتتولى مسئولياتها فى مرافقة هذه البرامج بالنقد والتقويم وكشف المواد المغشوشة التى تقدم فى أغلفة من الأضواء والألوان.